الوجه الآخر لحياتهم

المهدي المنجرة... "المفرد حين يكون جمعا" 1/3

النشأة الأولى والوسط العائلي

من حسن حظ المغاربة أن المهدي المنجرة هو واحد منهم، وإذا كانت لدى جنوب افريقيا مناجم الذهب ولدى مصر الأهرام ولدى البرازيل القهوة، فلدى المغرب الفوسفاط والسمك والمهدي المنجرة. يرى بعيدا مثل صقر، ويحلق عاليا كطائر، ويتكلم مثل حكماء الجبال في الصين القديمة. وهو حين يتكلم، فلكي يقول شيئا . هذا "المنذر بآلام العالم"، كما قال عنه ميشال جوبير مرة، يشرف اليوم على الثمانين حولا، ولكن الجلوس إليه ساعات يترك لديك انطباعا بأنك أمام رجل يشتغل في شباب كامل، مثل تلميذ يعالج واجباته المدرسية كما يليق. جاب هذا الطائر الحكيم أزيد من مائة وأربعين دولة عبر العالم في تجربته الغنية مع الحياة والمعرفة، حاور ثقافات وجاور معالم حضارية ولامس أفكارا وناظرعقولا، وعاد ليجلس على كرسي صغير في غرفة ضيقة تحوطها كتب بكل اللغات ليقول لك الخلاصة: "بهذا يعرف الله"! .المهدي المنجرة رجل واحد بصيغة المجموع . إنه المفرد حين يكون جمعا.

السنوات الأولى

ولد المهدي المنجرة في 1933 بالرباط، في حي يوجد خارج سور المدينة القديمة كان يحمل إسم حي "مراسا" . هذا البيت يوجد في مكانه اليوم المقر الرئيسي لحزب الاستقلال. كان والد المهدي، امحمد المنجرة، أحد التجار المغاربة في الثلاثينات ،والذين كان السفر جزءا من مهنتهم. نشأ المهدي في وسط عائلي تطبعه القيم المسلمة والدعوة السلفية، إذ كان جيران عائلة المنجرة من رجالات الوطنية والسلفية مثل الفقيه محمد بلعربي العلوي والذي كان صديقا لوالد المهدي.

لم تكن مدن مغرب الثلاثينات تشهد الفوارق الاجتماعية الصارخة، كما لم تؤثر هذه الفوارق التي وجدت ككل زمان، على العلاقات بين الناس داخل الأحياء السكنية، وذلك سبب تجذر القيم الأصيلة في نفوس الناس، فهم يختلفون إلى نفس المتجر، ويدخلون أبناءهم إلى نفس المسيد، ويذهبون إلى نفس الحمام، ويسيرون جميعا خلف الجنائز ويحضرون الأعراس جماعات متجانسة .هذا النسيج الاجتماعي هو ما ساعد فيما بعد الحركة الوطنية في

مهماتها النضالية والجهادية، لأن النخبة الوطنية لم تنشأ معزولة عن الناس، بل بينهم، واستندت على هذا الرصيد من التماسك الاجتماعي ووجود الإسلام حيا في قلوب الناس كمنظور حضاري ، وليس فقد كمجرد دين.
في هذا الوسط الشعبي المتحفز ضد "الكولونياليزم"، الكلمة التي كانت شائعة لتسمية الاستعمار الفرنسي وسط المغاربة، فتح الطفل المهدـ ي عينيه على العالم والناس والأشياء ،وبدأ يتهجى الأحرف الأولى للتواصل مع الآخرين. وبسبب علاقات والده مع رجال الحركة الوطنية وقيادات العمل الوطني احتك الطفل في سنواته الأولى بعالم الوطنية، ورافق والده إلى دار جده المريني حيث كانت تجرى التجمعات التي يقيمها العلماء.

الحياة في البيضاء

في بداية الأربعينات سيدخل المهدي ليسي غورو لمتابعة تعليمه الابتدائي، كان ذلك في 1941، لكن دراسته في هذا الليسي لم تخل من المصادمات التي يمكن أن تكون طبيعية بالنسبة للفتى الذي تشرب معاني الوطنية ومعاداة الاستعمار داخل البيت قبل الشارع، ولأن والده كان كثير التنقل بين الرباط والدار البيضاء في إطار عمله في عالم الأعمال قرر بعد اندلاع الشرارة الأولى للحرب العالمية الثانية الهجرة إلى البيضاء والاستقرار فيها، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة المهدي الصغير.
الدار البيضاء في النصف الأول من الأربعينات مدينة مشتعلة ومتوترة، خليط من الناس والرغبات مع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الجديدة، والمواجهات مع المستعمرين والمعمرين في البوادي والقرى حولها. وهنا سيتابع الطفل المهدي حياته ليكتشف حضور قيم الجوار والتآخي بين المغاربة، تلك المعاني التي يقول المنجرة إنها اليوم افتقدت، ولا أحد أصبح يتحدث عن "الجار قبل الدار". كان الغني الموسر إذا أعطى الفقير لا يفعل ذلك باعتباره صدقة، بل باعتباره حقا واجبا، وإذا جفف أحد السكان الزيتون أو القديد مثلا، ونشره على سطح البيت ورآه الجيران فلابد أن يوزع ما تيسر. كان مفهوما الإحسان والخير جزءا من حياة المغاربة الأصيلة، كما كان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ جماعيا في كل مكان.

المستقل
وفي الدار البيضاء سيزداد الوعي السياسي للفتى المهدي، وهناك كان عدد من الوطنيين الذين اقترب منهم كالقاضي الزموري والمهدي الصقلي الذي كان صديقا لوالده، وسمى ابنه على اسمه. تشكل الوعي السياسي المبكر لدى الفتى وفي الجو العام في الأربعينات من خلال كرة القدم والوداد البيضاوي الذي قاده الحاج بنجلون ، والذي كان زعيما سياسيا ورياضيا، وحلقة الحسين السلاوي التي كان المهدي يواضب على حضورها في "باب الجديد"، قبل أن يعود إلى درب التازي حيث بيت الأسرة، قرب المعرض الدولي اليوم، والذي كان مسبحا يختلف إليه المهدي مع الأقران. وهناك أيضا كان يحضر مع الآخرين صندوق العجب الذي كان يتفرج عليه الناس بشديد العجب والاندهاش، ويشبهونه بالسحر. كان ذلك صدمة السينما في بدايتها.
التحق المهدي بمدرسة الأعيان بحي موغادور، وفي نفس الوقت كان يتابع تعليمه بالمسيد، وتعليما ثانيا في البيت حيث كان ادريس الكتاني ومصطفى الغرباوي يعلمان المهدي وإخوته الثلاثة، الإخوين الشقيقين والشقيقة نجية، اللغة العربية. بعد حصوله على الشهادة الابتدائية سيلتحق بليسي ليوطي، الذي لم يكن يتجاوز عدد التلاميذ فيه الخمسين، عدد المغاربة بينهم لا يزيد على العشرة. وفي ليسي ليوطي سيشحذ المهدي إحساسه الوطني جيدا، ويتعلم اتخاذ المواقف وتحديد الاختيارات. كانت هناك خليتان حزبيتان في الليسي، الأولى تابعة لحزب الاستقلال يرأسها عبد الرحمان اليوسفي، والثانية تابعة لحزب الشورى والاستقلال يسيرها أحمد بلهاشمي، فكان المهدي يحضر اجتماعات الخليتين معا، بحافز الوطنية ومعاداة الاستعمار الفرنسي، ولكنه لم يفكر في الانخراط بأي منهما أو في أداء قسم الولاء، فقط ظل مستقلا.
وإلى جانب هذا النشاط كان للمهدي الفتى نشاطات أخرى إذ كان يحضر التجمعات الشعبية التي ينظمها الوطنيون في دار بنجلون وغيرها. ويتذكر حضوره للحفل الكبير الذي أقيم هناك بمناسبة عودة علال الفاسي من منفاه بالغابون، ويقول المنجرة إنه وهو فتى كان يرى في علال الفاسي رجلا مثاليا وعالما سخر علمه لخدمة قضايا أمته ومحاربة الجهل والتخلف الفكري.

النموذج التربوي

عاش المهدي المنجرة في وسط عائلي موسر، كانت أسرته من أوائل الأسر التي أدخلت الراديو إلى البيت والسيارة إلى المغرب، وارتبطت بشبكة الهاتف، لذلك لم تكن لديه مشكلة مع المعاصرة منذ البداية. يستعمل المنجرة كلمة المعاصرة أو المدنية ولا ينطق بالحداثة إلا بين قوسين . تلقى تربية سلفية على يد والده ووالدته التي كانت من أوائل النساء اللواتي كن يختلفن إلى "دار المعلمة" ،وهي ما يقوم مقام المسيد بالنسبة للرجال.

يقول إن والده رحمه الله شجع أبناءه منذ النشأة على الحرية والتعبير التلقائي والحر عن أفكارهم وآرائهم، ولم يفرض عليهم مواقف من أي نوع، ويقول المنجرة اليوم إن هذه القيم لا تزال جزءا من تكوينه ومن شخصيته، كان الوالد يطالبه فقط بالتمييز بين الأمور الرئيسية والأمور الثانوية، وأدخل في نفسه القدرة على التحليل وعدة اختيارات، وعلمه التركيز على الأولويات والنزاهة ومحاربة الغش، ويدرك المهدي أن والده فهمه جيدا، فلم يأمره يوما بالصلاة أو الصوم مثلا، بل كان يكتفي بإعطاء المثال والقدوة. كان الوالد مثقفا كون نفسه بنفسه، فرضت عليه تجارته التجول في دول أوروبية وإفريقية، كان يتحدث ست أو سبع لغات، لذلك لم يجد المهدي مشكلا مع المعرفة والثقافة داخل الأسرة.

بالنسبة للمنجرة فإن أفضل وسيلة بيداغوجية في تربية الأبناء هي المثال والنموذج. لديه بنتان هما الآن زوجتان وأمان، وله أحفاد منهما، ويقول إنه لم يتدخل أبدا في حياتهما أو في دراستهما أو في زواجهما، فقد اختارتا حياتهما بحرية، وهو سعيد لأن طريقته في التربية كانت ناجحة.ويقول بأنه لا يمكن أن أكون أكبر مدافع عن الحرية والاختيار ولا أمارس ذلك في بيتي. لكن الأمر أصبح صعبا اليوم، دون أن يفقد هذا النموذج أهميته، فقد أصبح دور الخارج في التربية بنسبة 70%، مقابل 30% فقط هي نسبة الدور الذي يقوم به البيت والمدرسة، لكن بالأمس كانت النسبة بين الاثنين منقلبة. فلسفة المهدي المنجرة في التربية توجد في بضع كلمات:إذا ربيت أبناءك على نمطك وثقافتك الشخصية وعاشوا على نفس قيمك دون أن يضيفوا هم لها شيئا، فإنك تكون قد فشلت في التربية.

نقمة في طيها نعمة 2/3

من السجن إلى نيويورك

حكاية الكلب الفرنسي

واجه المهدي المنجرة في طفولته عدة مشاكل في دراسته مع الأساتذة الفرنسيين الذين كانوا يدرسونه، سواء في ليسي غورو أو ليسي ليوطي، ويقول إن هذه المشاكل كانت ترجع إلى تشبثه بهويته الوطنية ومعاداته للاستعمار وثقافته، فقد كان من بين الأمور التي يرتضيها الأساتذة الفرنسيون الثناء على المحتلين والإشادة بالثقافة والحضارة الفرنسيتين في تمارين الإنشاء، وهو ما كان المهدي يرفضه.

ويحكي المنجرة واقعة حدثت له في بداية 1948، يعتبرها فاصلا في مسار حياته وشخصيته، ولا يكف عن التذكير بها، فقد ذهب إلى مدينة إفران في ذلك العام، وبينما كان في المسبح، اقترب كلب إحدى الفرنسيات من ماء المسبح، فاحتج أحد الفرنسيين، فأجابه آخر: « إذا كان هناك عرب يسبحون، فلم يمنع ذلك على الكلاب؟ »، يقول المنجرة إنه لم يتمالك نفسه فقفز نحو ذلك الرجل وضربه، ولم يكن ذلك الشخص سوى رئيس الأمن الإقليمي لمدينة إفران، واقتيد المهدي إلى مركز الشرطة حيث قضى بضعة أيام رهن الاعتقال بدون علم أسرته ووالده، ومنذ تلك الفترة يقول المنجرة إنه تعلم كيف يقف ضد الغطرسة الثقافية ويناصر مبادئ حقوق الإنسان.

ذلك الحادث أقنع والده بضرورة إرساله إلى الخارج لمتابعة دراسته بعد أن أصبح ذلك في المغرب متعذرا، ولم يكن ممكنا أن يختار له فرنسا، فأرسل المهدي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كان ذلك بضعة أشهر من ذلك الحادث.

الشخصية الأمريكية

وصل المهدي المنجرة إلى أمريكا عام 1948 ، وهي سنة مليئة بالأحداث والتطورات، ففي تلك السنة اعترفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بقيام الكيان الصهيوني، وفيها وقعت الحرب العربية الصهيونية، وفي نيويورك التي وصلها وجد اللوبي الصهيوني

اليهودي ناشطا بقوة لجمع التأييد والتبرعات للكيان الجديد، وعايش الضغوط اليهودية على الساسة الأمريكيين. وهناك بدأ يتحرك لصالح القضية العربية وفلسطين في الجامعة، حيث أسس النادي العربي وعمل مديرا للمجلس الدولي للطلبة.

نشط المهدي منذ سنة 1951 في مكتب حزب الاستقلال رفقة المهدي بنعبود الذي كان سفيرا للمغرب بواشنطن وعبد الرحمان بن عبد العالي وآخرين، وتجند لصالح استقلال المغرب، كما نشط في مكتب تونس عندما جاء باهي الأدغم إلى نيويورك في الخمسينات، وعمل مع الحسين آيت أحمد ومحمد اليزيد حين التحق بأمريكا وأسس مكتب الجزائر، كان يتحرك بين المكاتب الثلاثة وينشط فيها على السواء، ويتحرك على أساس توجه مغاربي أوسع. ويقول المنجرة إن تلك التجربة أقنعته بالنظر إلى المغرب كمفهوم واسع مرتبط بالمغرب العربي ككل، ويوم تتحرر المنطقة ستتحرر كل دولة على حدة، وما زال هذا المطلب مطروحا إلى اليوم لأن الاستقلال لم يتم. أما فكرة الحدود فلا يؤمن بها المنجرة، فما يفصل دول العالم الإسلامي أو دول المغرب العربي هي حدود خلقها الاستعمار الحديث وما زال يغذيها.

من الناحية النفسية والثقافية، يقول المنجرة إن سفره إلى أمريكا في نهاية الأربعينات كأول طالب مغربي يلتحق بالجامعة الأمريكية لم يشكل أي صدمة له، لأن الحوار والتواصل كانا جزءا من قيمه في الحياة ولا يزال، ولا يقع الاصطدام مع ثقافة معينة إلا حينما تهاجمك هذه الثقافة في ثقافتك وقيمك. لكن حياته وتجربته في أميركا كونت لديه تصورا معينا للشخصية الأمريكية.

الإنسان الأمريكي إنسان مكتف بذاته، ويعتبر أن الأشياء الخارجة عنه لا قيمة لها، وهو ليس محتاجا للآخرين لأن الآخرين هم الذين يحتاجون إليه، ويرى أنه أعلم من جميع الشعوب، فموقفه من البداية فيه نوع من التكبر والاستعلاء الحضاري والثقافي، لكن نظرا لقلة العمق الزمني للولايات المتحدة في التاريخ فإن هذا الاستعلاء يتحول إلى عقدة نقص تجاه كل ما هو حضارة وثقافة، وحساسية مفرطة تجاه أي حديث عن الحضارة الرومانية أو الفرعونية أو الإسلامية أو الصينية أو الإيرانية أو حضارة الهنودالحمر الأمريكيين، لأن الحضارة الأمريكية قامت على الغزو

والقتل والاحتلال، وتأسست على جثت 20 إلى 25 مليون نسمة من الهنود الأصليين الذين تمت إبادتهم.

لقاء مع محمد بن عبد الكريم

دامت إقامة المنجرة في أمريكا ست سنوات كانت غنية بالنسبة لرصيده المعرفي والثقافي والسياسي، إذ اشتغل على عدة واجهات، وكان أحد مؤسسي "جمعية المسلمين" والنادي الشرقي وعضوا لجمعية "من أجل عالم واحد". وفي 1954 عند نشوب الحرب بين أمريكا وكوريا طلب منه كباقي المهاجرين الذين يتوفرون على (الورقة الخضراء) أن يستعد للتجنيد، فرفض، وكان السبب نفوره من كل ما هو عسكري ومن كل ما يرمز للقتل والتدمير والعنف. وفي تلك السنة سافر إلى لندن لتحضير أطروحة الدكتوراه حول الجامعة العربية، وفي السنة الموالية 1955 سيحصل على منحة من مؤسسة روكفلر مكنته من السفر إلى مصر مدة ثلاثة أشهر للالتقاء بعدد من المسؤولين في الجامعة العربية، وهناك التقى بعدد من الطلبة المغاربة كعبد الكريم غلاب وعبد القادر الصحراوي، وكانت له فرصة للقاء بزعيم حرب الريف المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي وشقيقه امحمد، بالنسبة للمنجرة فإن هذا اللقاء مناسبة لا ينبغي نسيانها.

لقاءان مع الملك محمد الخامس

وفي تلك المرحلة كانت القضية الوطنية قد دخلت منعطفا ساخنا بعد قرار السلطات الفرنسية بنفي الملك الراحل محمد الخامس، وقد عاش المهدي هذه الظروف في لندن وفرنسا حيث كان واحدا من الطلبة المغاربة الذين استقبلهم محمد الخامس في العاصمة الفرنسية بعد عودته وأفراد عائلته من المنفى، لكن المنجرة الذي استقبله الملك الراحل في فرنسا كطالب قبل الاستقلال، سيستقبله بعد الاستقلال في الرباط عام 1959 كأول أستاذ مغربي في كلية الحقوق، ويعينه مديرا للإذاعة المغربية خلفا لقاسم الزهيري.